السلوانة الأولى

سلوانة التفويض

قال الله ربنا تقدس اسمه ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً﴾ [النساء : ١٩] .

وقال تقدس اسمه ﴿وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَعَسى أَنْ تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شرٌّ لَكُمْ واللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُون﴾ [البقرة:٢١٦].

فاستوقفَ من عَقَلَ أمرَهُ عن الاقتراحِ[1] عليه وأفهمهم ما يرضاه من التفويض إليه ، فالعاقل تارك الاقتراح على العالِمِ بالصلاح ، ووجه إفهام الندب إلى التفويض من هاتين الآيتين : أنه إذا كان المكروه قد يأتى بالمحبوب والمحبوب قد يأتى بالمكروه ، فالأولى بذى البصيرة ألا يأمن المضرة بالمسرة ، ولا ييأس من المسرة بالمضرة ، فيستخير الله سبحانه ولايختار عليه ، وهذا هو التفويض المستمِدُّ من الله سبحانه ، صرفَ البلاءِ ، واللطف فى مكروهِ القضاءِ

وبهذا عامَلَ الله سبحانه مؤمن آل فرعون حين فوض أمره إليه . وذلك ما بلغناه : أنه كان من ذوى قرابة فرعون وخواص أصحابه ، وكان وزراء فرعون قد فطنوا لإيمانه واتباعه موسى عليه السلام ، فأطلعوا فرعون على ذلك فلم يصدقهم وعطفته على ذلك المؤمن القرابة ، ولما ظهرت آيات الله سبحانه على يدى موسى عليه السلام بحضرة فرعون ، جمع فرعون بطانته ووزراءه وفيهم ذلك المؤمن ، فشاورهم فى أمر موسى عليه السلام فاتفقوا على أن الرأى مطاولة موسى عليه السلام وجمع السحرة لمقاومته ، وكان رأى فرعون معالجة موسى بالقتل ، وبذلك أخبر ربنا تقدس اسمه فقال ﴿قَالُوْا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فى المَدَائِنِ حَاشِرِيْنَ ، يأتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [الأعراف :١١١] . وقال عزّ من قائل ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِى أَقْتُلْ مُوسَى﴾ [غافر : ٢٦] .

ولما اطلع وزراء فرعون على رأيه فى موسى عليه السلام ؛ أمسكوا عن مراجعته هيبة له ، و سَق ذلك المؤمن أن يبطش فرعون بموسى عليه السلام ،

---

(١) الاستنباط من ذات نفسه من غير سماع .

فعيل صبره[1] وضاق بسره صدره فقال ما أخبر الله به عنه ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [غافر : ٢٨] ، ثم كأنه استقال وراجع التقية[2] والحذر والتورية فقال ما أخبر الله عنه ﴿وإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُه وإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ [غافر : ٢٨] .

فلما سمع فرعون مقالته غضب وأمر به فسجن ، ثم شاور بطانته ووزراءه في أمره ، فأشاروا بأن يسلط العذاب عليه ثم يقتله ليرتدع به من كان على مثل رأيه، فكره ذلك فرعون وعطفته عليه القرابة ، وأمر وزراءه أن يسيروا إلى ذلك المؤمن فيعظوه وينصحوه ، ويأمروه بمراجعة ما كان عليه من الطاعة ، ويخوفوه عاقبة خلافه ، ففعلوا ذلك .

فلما سمع المؤمن مقالتهم دعاهم إلى الله تعالى ، وأذكرهم ما عاينوه من الآيات، وحذرهم زوال نعمة الله عنهم ، وحلول مكره بهم وكان منه إليهم ما أخبر الله عز وجل به عنه من قوله ﴿ويَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ﴾ [غافر : ٣٠] ، وقوله ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالبَيِّنَاتِ﴾ [غافر : ٣٤] . وقوله ﴿وَيَا قَوْمِ مَالِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ إلى قوله ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [غافر : ٤٤] .

فعاد القوم إلى فرعون وأخبروه عن المؤمن بثبوته على المشاقة[3] والمنابذة[4] والمعصية لفرعون ، وأن النصح لم يزده إلا تماديا على أمره ، فساء ذلك فرعون وشق عليه ، وخلا بنفسه مفكرا فيه ، فأتته ابنته فسألته عن أمره فأطلعها عليه فقالت له : إن عندى الفرج مما أنت فيه ، فلا تتعجل على خاصتك وذوى قرابتك فإنه على ما تحب ، ولكنه لما رأى أن موسى عليه السلام قد امتنع بالسلطان الذى فى عصاه ، وأنّ قتله مجاهرة غير ممكن ،

---

(١) أى نفذ صبره .

(٢) أن يقول غير ما يضمره .

(٣) المخالفة .

(٤) المفارقة عن عداوة .

تظاهر بما أنكرته عليه ؛ لينخدع بذلك موسى ويتمكن من مداخلته وقتله غيلة[1] ، فكلما رأيت وسمعت إنما هو مكر بموسى ، وما منعه أن يطلع عليه وزراءك حين ذهبوا إليه، إلا أنهم أهل نميمة وحسد وبغى ، لم ينطبعوا على مثل رأيه ونصحه .

فسر فرعون بمقالتها وألقى الله فى نفسه تصديقها ، فيقال : إن آسية امرأة فرعون هى التى أمرتها بذلك ، فأحضر فرعون ذلك المؤمن ، واعتذر إليه وأكرمه، وقال له : قد علمت ما أنت قاصد له وساع فيه ، فقل ما بدا لك أن تقوله ، وافعل ما شئت أن تفعله فلست أتهمك . قال الله سبحانه ﴿فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ [غافر :٤٥] .

فهذه الوقاية هى ثمرة ذلك التفويض ، ثم قال ربنا تقدس اسمه ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ [غافر :٤٥] ، أى حاق بهم ما أرادوه بذلك المؤمن من التعذيب ، وإن كان عذاب الدنيا لا يجتمع مع عذاب الآخرة إلا فى التسمية ، وهذا كقوله سبحانه ﴿وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر : ٤٣] .

واعلم رحمك الله وإياى أن حقيقة التفويض هو التسليم لأحكام الله ، وهو الذى دل الله عليه مصطفاه محمدا ﷺ بقوله ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة : ٥١] ، وأس[2] التفويض والباعث عليه ، إنما هو : اعتقاد أنه لا يكون من الخير والشر إلا ما أراد الله تعالى كونه . ولا يصح التفويض ممن لم يعتقد ذلك ويتدين به ، وقد بالغ النبى ﷺ فى قوله لعبد الله بن مسعود[3]: «**ليقل همك ما قدر يأتيك وما لم يقدر لم يأتك ، واعلم أن الخلق لو جهدوا أن ينفعوك بشىء لم يكتبه الله عز وجل لك لم يقدروا على ذلك ، ولو جهدوا أن يضروك بشىء لم يكتبه الله عز وجل لك**

(١) قتله بالخديعة ، أى اغتياله .

(٢) أصل وأساس .

(٣) عبد الله بن مسعود ؛ ابن غافل بن حبيب بن شمخ بن الحارث ، أبو عبد الرحمن الهذلى المهاجرى البدرى ، الإمام الحبرُ ، فقيه الأمة كان من السابقين النجباء والعاملين ، شهد بدراً . وهاجر الهجرتين ، ومناقبه غزيرة ، روى علماً كثيراً ، قال فيه النبى ﷺ «من أحب أن يقرأ القرآن غضاً كما أنزل فليقرأ قراءة ابن أم عبد» . مات بالمدينة ودفن بالبقيع سنة (٣٢هـ) وله ٦٣ سنة . سير أعلام النبلاء (٩٣) .

لم يقدروا على ذلك»[١] . فقوله صلى الله عليه وسلم : «ليقل همك» . أمر بالتفويض ، وقوله «وما قدر يأتيك» . إلى آخر الكلام : بيان للعلة التى من أجلها فوّض العقلاء، وسلموا إلى الله عز وجل .

ونحو ذلك ما رويناه فى مسند مسلم ؛ أن النبى ﷺ قال لأبى هريرة ، فى كلام قاله له : «وإن أصابك شئ فلا تقل لو فعلت كذا لكان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان»[٢] . فدله على التفويض إلى الله والتسليم لأمره ونهاه عن قول (لو) لأنها تنافى التفويض إلى الله ، وتقتضى الاعتراض على قدره ، والتعاطى لدفع مشيئته .

ومما رويناه من صحيح مسلم عن البراء بن عازب أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ لِلصَّلاة ، ثم اضْطَجِعْ على شِقِّكَ الأَيْمَنِ ثم قُلْ : اللَّهُمَّ إِنِّى أَسْلَمْتُ وَجْهِى إِلَيْكَ ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِى إِلَيْكَ ، وأَلْجَأْتُ ظَهْرِى إِلَيْكَ ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إليك ، لا مَلْجَأَ ولاَ مَنْجَا مِنْكَ إِلاَّ إِلَيْكَ ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِى أَنْزَلْتَ ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِى أَرسَلْتَ»[٣] .

أسجاع وأبيات حكمية فى التفويض

مُعارضةُ العليلِ طبيبَه ؛ تُوجبُ تعذيبَهُ .

إنما الكيِّسُ[٤] الماهرُ ؛ من استسلم فى قبض القاهر .

إذا كانت مغالبة القدر مستحيلة ؛ فمن أعوان نفوذ الحيلة .

إذا التبست المصادر ؛ ففوض الأمر إلى القادر .

إن من الدلالة على أن الإنسان مصرف مغلوب ، ومدبر مربوب[٥] ؛ أن يتبلد رأيه فى بعض الخطوب ، ويعمى عليه الصواب المطلوب ، فإذا كان ذلك ، فإن تدميره فى تدبيره ، واغتياله فى احتياله ، وهلكته فى حركته .

---

(١) أخرجه الترمذى :كتاب صفة القيامة ، باب (٥٩) (٢٥١٦) بنحوه من طريق ابن عباس رضي الله عنه .

(٢) أخرجه الإمام مسلم : كتاب القدر ، باب الإيمان للقدر والاذعان له (٣٦) من طريق أبى هريرة رضي الله عنه ، وابن ماجة : كتاب المقدمة ، باب (١٠) (٧٩) ، والإمام أحمد فى مسنده (٣٦٦/٢ ، ٣٧٠) .

(٣) أخرجه الإمام مسلم : كتاب الدعاء ، باب الدعاء عند النوم (٥٤) (٥٥) من طريق البراء ابن عازب رضي الله عنه .

(٤) الفطن والحسن الفهم .

(٥) أى فطر على العبادة .

قيل : كان الحجاج بن يوسف[1] إذا تعارضت آراؤه فى خطب من الخطوب أنشد :

دَعْهَا سَمَاوِيَّةً تَجْرى عَلَى قَدَرٍ لا تُفْسِدَنْهَا بِرَأْىٍ مِنْكَ مَنْكُوس[2]

وفى ذلك قلت :

أيَا مَنْ يُعَوِّلُ فى المشكلاتِ عَلَى مَا رَآه ومَا دَبَّرَهْ
إذَا أشْكَل الأمْرُ فابْرأ بِه إلى مَنْ يَرى مِنْه مَا لَم تَرَهْ
تَكُن بَيْنَ عَطْفٍ يَقِينُكَ المخُوفَ ولُطْفٍ يُهَوِّنُ مَا قَدَّرَهْ
إذَا كُنْتَ تَجْهَلُ عُقْبَى الأمُور وَمَا لَكَ حَوْلٌ وَلاَ مَقْدِرَةْ
فَلِمَ ذَا العِنَا وَعَلامَ الأسَى ومِمَّ الحَذَار وفِيمَ الشَّرِهْ؟

وقلت فى ذلك أيضا :

يَا رُبَّ مُغْتَبِطٍ ومَغْبُوطٍ بِرَأْى فِيهِ هُلْكُهْ[3]
ومُنَافِسٍ فِى مُلْكٍ مَا يُشْقِيهِ فى الدَّارَيْنِ مُلْكُهْ
عِلْمُ العواقِبِ دُونَه سِتْرٌ ولَيْس يُرام هَتْكُهْ[4]
فَكُن امْرأً مَحْضَ اليَقِين وَزَيَّفَ الشُّبُهَاتِ نُسْكُهْ
ومُعَارِضُ الأقْدَارَ بالآرَاء سَيِّئُ الحَالِ ضَنْكُهْ
تَفْوِيضُه تَوْحِيدُهُ وعِنَادُ المقْدُور شِركُهْ

روضة رائقة ورياضة فائقة

لما بلغ الوليد بن يزيد بن عبد الملك[5] أن ابن عمه يزيد بن الوليد بن

---

(١) الحجاج بن يوسف الثقفى ؛ قائد وخطيب عربى ، ولد فى الطائف ، وولاه الخليفة عبد الملك بن مروان إمرة الجيش ، كان ذا شجاعة وإقدام ومكر ، ودهاء وفصاحة وبلاغة وتعظيم للقرآن ، وله حسنات مغمورة فى بحر ذنوبه ، وأمره إلى الله ، وله توحيد فى الجملة ، ونظراء من ظلمة الجبابرة والأمراء ، أهلكه الله فى رمضان سنة (٩٥هـ) كهلاً، وكان ظلوماً ؛ جباراً ، سفاكاً للدماء . سير أعلام النبلاء (٤٩٨) .

(٢) منكوس : أى خائب مردود .

(٣) الغبطة : تمنى نعمة على أن لا تحول عن صاحبها .

(٤) يرام : أى يراد .

(٥) الوليد بن يزيد بن عبد الملك ؛ هو الخليفة الأموى الحادى عشر ، خلف عمه هشام بن

عبد الملك[1] قد أوغر عليه الصدور ، وشرد عنه القلوب ، واستجاش اليمن عليه، ونازعه رداء ملكه ساعيا فى هلكه ، استوحش من بطانته ، واحتجب عن سماره ، فدعا عشية من عشايا وَحْشَتِهِ خادما له فقال : انطلق متنكرا فقف ببعض الطرق وتأمل من يمر بك من الناس ، فإذا رأيت كهلا رث الهيئة والملبس يمشى مشيا هونا وهو مطرق فسلم عليه وقل له فى أُذنه : إن أمير المؤمنين يدعوك ، فإن أسرع الإجابة فائتنى به ، وإن تلكأ أو عارض أو استراب فدعه ، واطلب غيره حتى تأتينى برجل على الشرط .

فلما دخل الكهل على الوليد بن يزيد حياه بتحية الخلافة وقام ، فأمره الوليد بالدنو والجلوس ، وأمهله إلى أن ذهبت روعته وسكن جأشه ، ثم أقبل عليه فقال: أتحسن مسامرة الخلفاء ؟ فقال الكهل: نعم أحسنها يا أمير المؤمنين فقال له الوليد: إن كنت تحسن مسامرة الخلفاء فأخبرنا عنها ما هى ؟ .

فقال الكهل : المسامرة إخبار لمنصت وإنصات لمخبر ، ومفاوضة فيما يعجب ويليق ، فقال له الوليد: أحسنت أيها الرجل ، لأزيدك امتحانا ، فقل فنصت لقولك.

فقال الكهل : يا أمير المؤمنين : إن المسامرة صنفان لا ثالث لهما : أحدهما: إخبار بما يوافق خبرا مسموعا ، والثانى : إخبار بما يوافق غرضا مقترحا ، وإنى لم أسمع بحضرة أمير المؤمنين حديثا ، فأحذو على مثاله ولا أقترح على أمير المؤمنين سلوك طريقة فأنحو نحوها وألزم أسلوبها .

فقال الوليد : صدقت ، وها نحن نقترح عليك ونرسم لك رسما لتقتفيه : إِنَّا بَلَغَنَا أَنَّ رَجُلاً مِنْ رَعِيتَنَا سَعى فِيْمَا يَضمُّ مُلْكَنَا ، فَأَزْمَنَ سَعْيه[2] ، وَشَقَّ ذَلِكَ

عبد الملك ، عاش فى قصره فى البادية منصرفاً إلى الشعر والموسيقى حتى قتل عام (١٢٦هـ) وقد تولى الخلافة عام (١٢٥هـ) سير أعلام النبلاء (٧٩٤) .

(١) يزيد بن الوليد ؛ الخليفة أبو خالد القرشى الأموى الدمشقى ، استخلف بعهد عقده له أخوه سليمان بعد عمر بن عبد العزيز ، وأمه هى عاتكة بنت يزيد بن معاوية . ولد سنة (٧١هـ) وكان لا يصلح للإمامة ، مصروف الهمة إلى اللهو والغوانى . مات سنة (١٠٥هـ) . سير أعلام النبلاء (٦٧٩).

(٢) أى طال سعيه .

عَلَيْنَا وَبَلَغَ مِنّا ، فَهَلْ نمى ذلك إلى علمك ؟ .

فَقَالَ الكَهْلُ : نَعَمْ ، قَالَ الوَلِيْدُ : قُلْ الآنَ عَلَى حَسْبِ مَا نَمى إِلَيْكَ مِنْهُ وَعَلَى حَسْب مَا تَرْضَى مِنَ التَدْبيرِ فِيْهِ .

فَقَالَ الكَهْلُ : يَا أَمِيْرُ المُؤْمِنِيْن : إِنَّهُ بَلَغَنِى أَنَّ أَمِيرَ المؤْمِنِين عَبْدَ المَلِكِ بن مروان[1] ، لما نَدَبَ النَاسَ لِقِتَالِ عَبْد الله بن الزبير[2] ، وخرج بهم متوجهًا إلى مكة ـ حرسها الله ـ استصحب عمرو بن سعيد بن العاص[3] ، وكان عمرو بن سعيد قد انتوى على دغل نية[4] ، وفساد طوية ، وطماعية فى نيل الخلافة ، وكان أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان قد فطن لذلك إلا أنه كان يبقى عليه لتأكد حرمته ، وأواصر رحمه . فلما فصل أمير المؤمنين عن دمشق وسار عنها أياما، واستمر به السير تمارض عمرو بن سعيد ، فاستأذن أمير المؤمنين عبد الملك فى العود إلى دمشق[5] فأذن له ، فلما دخل عمرو بن سعيد

---

(١) عبد الملك بن مروان ؛ ابن الحكم بن أبى العاص بن أمية ، الخليفة الفقيه ، أبو الوليد الأموى ، ولد سنة (٢٦هـ) . تملك بعد أبيه الشام ومصر ، ثم حارب ابن الزبير الخليفة ، كان قبل عابداً ناسكاً بالمدينة . أول من ضرب الدنانير وكتب عليها القرآن . وكان من رجال الدهر ودهاة الرجال ، وكان الحجاج من ذنوبه . مات سنة (٨٦هـ) وله (٦٠سنة) سير أعلام النبلاء (٤٧٠) .

(٢) عبد الله بن الزبير ؛ ابن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى ، أمير المؤمنين ، أبو بكر وأبو خبيب ، القرشى الأسدى المكى ثم المدنى ، أحد الأعلام . كان أول مولود للمهاجرين بالمدينة . بويع بالخلافة عند موت يزيد سنة (٦٤هـ) وحكم على الحجاز ، واليمن ، مصر ، والعراق وخراسان ، وبعض الشام . ومناقبه وفضائله رضي الله عنه تطول فى هذا المكان . مات سنة (٧٣هـ) . سير أعلام النبلاء (٢٨٧) .

(٣) عمرو بن سعيد بن العاص ؛ ابن أمية بن عبد شمس ، أبو أمية القرشى الأموى ، المعروف بالأشدق ، يقال إنه رأى النبى ﷺ وروى عنه . استنابه معاوية على المدينة، وكذلك يزيد بن معاوية بعد أبيه . وكان من سادات المسلمين ، ومن الكرماء المشهورين، يعطى الكثير ، ويتحمل العظائم ، ومات سنة (٧٠هـ) البداية والنهاية (٣١٤/٨) .

(٤) أى أضمر الغدر والخديعة .

(٥) دمشق : مدينة سورية ، وهى عاصمتها حالياً ، تقع على نهر بردى . معجم البلدان

دمشق ، صعد المنبر فخطب الناس خطبة نال فيها من الخليفة ، ودعا الناس إلى خلعه فأجابوه إلى ذلك وبايعوه ، فاستولى على دمشق وحصن سورها ، وحمى عورتها، وسد ثغورها وبذل الرغائب[1] ، فبلغ ذلك عبد الملك بن مروان وهو متوجه إلى ابن الزبير ، وبلغه مع ذلك أن والي حمص قد نزع يده من الطاعة ، وأن أهل الثغور قد تشوفوا للخلاف ، فخرج على وزرائه وبيده مخصرة[2] يضرب بها عطفه[3]، فأطلعهم على ما بلغه وقال لهم : هذه دمشق دار ملكنا قد استولى عليها عمرو بن سعيد ، وهذا عبد الله بن الزبير قد استولى على الحجاز والعراق ومصر واليمن وخراسان، وهذا النعمان بن بشير[4] أمير حمص[5] ، وزفر بن الحارث[6] أمير قنسرين[7] ، ونائل بن قيس[8] أمير فلسطين[9] ، قد نزعوا أيديهم من الطاعة وبايعوا الناس لابن الزبير ، وقد تشوف أهل الثغور

(٤٨٦٦) .

(١) الرغائب : مفردها رغيبة وهى العطاء الكثير .

(٢) عصا يتوكأ عليها .

(٣) جانبه .

(٤) النعمان بن بشير ؛ ابن سعد بن ثعلبة ، الأمير العالم ، صاحب رسول الله ﷺ وابن صاحبه . أبو عبد الله . أبو محمد الأنصارى الخزرجى . وكان من أمراء معاوية ؛ فولاه الكوفة مدة ، ثم ولى قضاء دمشق بعد فضالة ، ثم ولى إمرة حمص .. قيل : إنه قتل بقرية بيرين فى آخر سنة (٦٤هـ) رضي الله عنه . سير أعلام النبلاء (٣٠٠) .

(٥) حمص : مدينة سورية على نهر العاصى بين دمشق وحماة . معجم البلدان (٣٩١٤) .

(٦) زفر بن الحارث : أمير قنسرين فى عهد عبد الملك بن مروان .

(٧) قنسرين : كورة بالشام منها حلب ، وهى مدينة بينها وبين حلب مرحلة من جهة حمص بقرب العواصم . معجم البلدان (٩٩٢٠) .

(٨) نائل بن قيس : هو أمير فلسطين فى عهد عبد الملك بن مروان وبايع له مروان بن الحكم بفلسطين . البداية والنهاية (٢٤٣/٨) .

(٩) فلسطين : هى آخر كور الشام من ناحية مصر ، قصبتها البيت المقدس ، ومن مشهور مدنها عسقلان والرملة وغزة وأرسوف وقيسارية ونابلس وأريحا وعمان ويافا وبيت جبرين . وقيل : إنها أول أجناد الشام من ناحية الغرب . معجم البلدان (٩٢٤٣) .

للخلاف وهذه المضرية[1] سيوفها على عواتقها تطالبنا بقتلى المرج .

فلما سمع وزراؤه مقالته ذهلت عقولهم وعلموا أن لا مقر ولا مفر ، فنكسوا رؤوسهم ولم ينطقوا ، فقال لهم عبد الملك : ما لكم لا تنطقون أحضرونى غناءكم فهذا وقت الحاجة إليكم ، فقال له أفضلهم : وأى غنى عندنا فى هذا ؟ وددت والله أنى كنت حرباء على عود من أعواد تهامة[2] حتى تنقضى هذه الفتن .

قال محمد ـ عفا الله عنه ـ : الحرباء : دابة صغيرة طولها أقل من شبر ، لها قوائم أربع ورأس يشبه رأس العجل ، إذا طلعت عليها الشمس ، قامت على عود، أو جرثومة ، أو حجر ، استقبلت الشمس بعينها ، وجعلت تراعيها ولا تصرف عنها بصرها ؛ حتى تستوى الشمس فى أعلى فلكها ، فتصير على رأس الحرباء ، فلا يمكنها النظر إلى الشمس ، فتقلق وتتململ وتضرب بلسانها حنكها، كما يفعل من يسوق حمارا ، فلا تزال كذلك حتى تزول الشمس ، فتستدير الحرباء فتقابلها ببصرها وتراعيها كذلك ، حتى تغيب الشمس فى مغربها ، فإذا غربت ذهبت الحرباء تبتغى ما تأكله ليلتها ، حتى إذا طلعت الشمس عادت لفعلها. فتمنى هذا الرجل أن يكون حرباء فرارا من تلك الفتن .

قال الكهل : فلما سمع عبد الملك مقالة صاحبه ؛ علم أن لا غناء عند وزرائه، فقام عنهم وأمرهم بلزوم موضعهم ، وركب من فوره منفردا ، وأمر جماعة كثيفة من شجعان أصحابه وفرسانهم أن يركبوا فى السلاح ويتبعوه مبتعدين منه، بحيث يرون إشارته إن أشار إليهم ففعلوا ، وسار عبد الملك واتبعه القوم على ما رسم لهم ، فلم يزل سائرا حتى انتهى إلى شيخ كبير السن ضعيف الجسم سيء الحال وهو يجمع السماق[3] فسلم عليه عبد الملك وآنسه بحديث خفيف . ثم قال له : أيها الشيخ : ألك علم بمنزل هذا العسكر ؟ .

---

(١) المضرية : نسبة إلى قبيلة مضر . وسمى مُضَر بذلك لأنه كان مولعاً بشرب اللبن الماضر .

(٢) تهامة : بلاد جنوبى الحجاز والنسبة إليها تهامى . البداية والنهاية (٢/١٦٠) .

(٣) نوع من الأشجار .

فقال الشيخ : بلغنى أنه نزل بموضع كذا .

فقال له عبد الملك : هل سمعت شيئًا مما يقول الناس فى أمره ؟ .

فقال الشيخ : ما سؤالك عنه ؟ قال عبد الملك : إنى أريد اللحاق به والدخول فى عسكره والتعرض للحظوة عنده .

فقال الشيخ : إنى أراك أديبا وضيا ، وأحسبك حسيبا سريا ، فهل تحب أن أنصح لك فيما أنت قاصد ؟ ، فقال عبد الملك : ما أحوجنى إلى ما تقول .

فقال الشيخ : إنه ينبغى لك أن تصرف نفسك عن هذا الذى نزعت إليه ، فإن الأمير الذى أنت قاصده قد انحلت عرى ملكه ، ونابذه أتباعه ، واضطربت أموره ، وإن السلطان فى حال اضطراب أموره كالبحر فى حال هياجه ، لا ينبغى أن يقرب .

فقال عبد الملك : أيها الشيخ إن الحكمة لم تبلغ بى مغالبة نفسى فى كل ما نزعت إليه ، وإنى أجدها تنزع إلى صحبة هذا الأمير نزاعا شديدا ، ولابد لى من ذلك ، فهل لك أن تحسن إلي فتخبرنى بما تراه من الرأى لهذا الأمير فى تدبيره هذه الخطوب التى دهمته ؛ لأعرض ذلك الرأى عليه والنفق به عنده فلعله أن يكون سببا لقربى منه .

فقال الشيخ : إن حكمة الله وعزته ؛ ليقضيان بحجب العقول والآراء عن النفوذ فى بعض النوازل ، وإنى لأظن أن هذه النازلة التى نزلت بهذا الخليفة من النوازل التى لا تنفذ فيها العقول ولا يهتدى إلى صواب تدبيرها الرأى ، وإنى لأكره أن أرد مسألتك بالخيبة ، فها أنا أقول فيما سألتنى عنه قولا أقضى به حق رغبتك ، وإن كنت لا أثق بنفسى فيه لأن الخطب عظيم جدا ، والخطر فيه يضاهى عظمه .

فقال له عبد الملك : قل جزاك الله خيرا ، فإنى لأرجو أن يسددك الله ، ويرشدك ويرشدنى بك إلى الفلاح .

فقال الشيخ : إن هذا الخليفة خرج لمحاربة عدوه فظهر من مشيئة الله سبحانه أنه لا يريد ما قصد له ، والدليل على أن الله لم يرد قصده لمحاربة ابن الزبير ، أنه قطعه عن التمادى بما أحدثه فى دار ملكه ، من وثوب عمرو بن

سعيد على منبره، واستفساده لرعيته ، واستيلائه على بيوت أمواله ، وسرير خلافته ، وإنى مشير عليك بتفقد حال هذا الأمير وانتظار ما يكون منه ، فإن رأيته قد تمادى فيما خرج إليه ، وأصر على قصد ابن الزبير ؛ فاعلم أنه مخذول فاجتنبه ، وإنما كان مخذولا لأن الله سبحانه قد أظهر من حكمه أمرا يقطعه عن التمادى لما خرج له فأبى إلا لجاجا[1] ، وإن رأيته قد رجع من حيث جاء وترك ما كان خرج له وقصد إليه، فأرجو له السلامة لأنه مستقيل[2] مراجع ، والله سبحانه أهل أن يقيل مَنْ استقاله ويرحم من رجع إليه .

فقال له عبد الملك : يا شيخ : وهل رجوعه إلى دمشق إلا كمسيرى إلى ابن الزبير ، إذ كان قد ظهر من حكم الله ومشيئته أن قبض قلوب رعيته الذين بدمشق عن موالاته ، وبسط أيديهم بالبيعة لغيره ؛ فمسيره إلى ابن الزبير كرجوعه إلى عمرو بن سعيد ؛ لأن كل واحد منهما حاصل على مملكة منيعة ، ورعية مطيعة .

فقال الشيخ : إن الذى أشكل عليك لواضح بيّن ، وها أنا أزيل اللبس عنك ، إن عبد الملك إذا قصد ابن الزبير كان فى صورة ظالم له ؛ لأن ابن الزبير لم يعطه طاعة قط ، ولا وثب له على مملكة ، وهو إذا قصد عمرو بن سعيد ، كان فى صورة المظلوم ؛ لأن عمرو بن سعيد نكث[3] بيعته ، وخان أمانته ، وأفسد رعيته، وحملهم على النكث والغدر ، ووثب على دار ملك لم يكن له ولا لأبيه بل كان لعبد الملك ولأبيه من قبله ، وعمرو بن سعيد عليها معتد ، ولها مغتصب . وإنه كان يقال : سمين الغصب مهزول ، وولى الغدر معزول . وكان يقال : جيش العدوان مفلول ، وعرش الطغيان مثلول[4] .

وسأضرب لك مثلا يشفى النفس ، وينفى البأس ، وأودعه من فقر الحكم ما

---

(١) إلحاحاً .

(٢) أى رجع عما يفعله .

(٣) نقض .

(٤) هالك .

يشحذ[1] الفطن والألباب ، ويسفر عن وجه الصواب .

قال الشيخ : زعموا أن ثعلبا كان يدعى ظالما ، وكان له جحر يأوى إليه ، وكان مغتبطا به لا يبتغى عنه حولا ، فخرج يوما يبتغى ما يأكل ، ثم رجع فوجد فيه حية فانتظر خروجها عنه فلم تخرج ، وعلم أنها قد أوطنته ، وذلك أن الحية لا تتخذ جحرا أو تدخل الجحر فتغتصبها ، وتطرد عنها ما كان فيها من الحيوان، قال الراجز يصف رجلا بالظلم :

وأنتَ كَالأفْعَى التى لا تَحتَفِر ثُم تَحبِى شَارِدَةَ فَتَنْحَجِر[2]

ولذلك قالوا : فلان أظلم من حية ، فهذا ظلمها ، ولما رأى ظالم أن الحية قد أوطنت جحره ، ولم يمكنه السكوت معها ذهب يطلب لنفسه مأوى ، فانتهى به الطواف إلى جحر حسن الظاهر ، حصين الموضع ، فى أرض خصبة ذات أشجار ملتفة وماء معين ، فأعجبه وسأل عنه ، فأخبر أن ذلك الجحر لثعلب يدعى مفوضا، وأنه ورثه عن أبيه ، فناداه ظالم ، فخرج إليه ورحب به وأدخله الجحر ، وسأله عن ما قصد له فقص عليه خبره وشكا إليه ما ناله ، فرق له مفوض ، ثم أقبل عليه فقال له : إن من الهمة ألا تقتصر عن مطالبة عدوك ، وأن تستفرغ جهدك فى ابتغاء دفعه وهلكه . وإنه كان يقال : من تهيب عدوه فقد جيش إلى نفسه جيشا . وكان يقال : رب حيلة أنفع من قبيلة . وكان يقال : الموت فى طلب الثأر خير من الحياة فى العار . وكان يقال : إذا طلبت لقاء عدوك بالقوة فلا تقدمن عليه حتى تعلم ضعفه عنك ، وإذا طالبته بالمكيدة فلا يعظمن أمره عندك وإن كان عظيما .

والرأى عندى أن تنطلق معى إلى مثواك الذى انتزع منك غصبا ؛ حتى تطلع عليه فلعلى أن أهتدى إلى وجه مكيدة فى تمكينك منه ، فإن أفضل الرأى ما أسس على الروية . ولهذا قيل : يفسد التدبير بثلاثة أسباب أحدها : أن يكثر الشركاء فيه ، فإذا كان كذلك انتشر التدبير وبطل . والثانى : أن يكون الشركاء فى التدبير متحاسدين متنافسين فيدخله الهوى والبغى فيفسد . والثالث: أن يملك التدبير من غاب عن الأمر المدبر دون من باشره وشاهده ، فإذا كان كذلك دخله

---

(١) يصقل .

(٢) تنحجر : أى تتخذ ما يلاقيها من الجحور موطناً لها .

حقد المباشر الحاضر وفوت الفرص ، ثم أن تدبير المسموعات مؤسس على ظنون الخبر ، وتدبير المبصرات مؤسس على يقين النظر .

فانطلقا معا إلى ذلك الجحر فتأمله مفوض وعلم ما أراد علمه ، ثم أقبل على ظالم فقال له : قد شاهدت من أمر مسكنك ما فتح لى باب المكيدة ، وسفر لى عن وجه الرأى فيه .

فقال ظالم : أطلعنى على ما ظهر لك .

فقال مفوض : إن أضعف الرأى ما سنح فى البديهة ، وإنه كان يقال: الرأى مرآة العقل ، فمن أردت أن ترى صورة عقله فاستشره ، وكان يقال : أفضل الرأى ما أجادت الفكرة فقده ، وأحكمت الروية عقده ، وكان يقال : الرأى سيف العقل ، ولما كان أمضى السيوف ما بولغ فى إرهاف حده[١] ، وأجيد صقله ؛ كان أنجح الآراء ما أكثر امتحانه وأطيل تأمله[٢] ، وكان يقال : كل رأى لم تتمحص[٣] فيه الفكرة ليلة كاملة فهو مولود لغير تمام ، ثم قال له : انطلق معى فبت الليلة عندى لأنظر ليلتى هذه فيما سنح لى من المكيدة ، ففعلا وبات مفوض مفكرا فى ذلك ، وجعل ظالم يتأمل مسكن مفوض ، فرأى من سعته وطيب تربته، وحصانته وكثرة مرافقه ؛ ما اشتد له إعجابه به وحرصه عليه، وطفق يدبر الحيلة فى غصبه ونفى مفوض عنه .

وكان يقال : اللئيم كالنار إكرامها إضرامها[٤] ، وكالخمر حبيبها سليبها ، وتبيعها صريعها ، وكان يقال : إذا كانت الإساءة طبعا ، لم يملك لها الإحسان دفعا ، وكان يقال : العاقل يقدم التجريب على التقريب ، والاختبار على الاختيار، والثقة على المقة[٥].

فلما أصبحا ، قال مفوض لظالم : إنى رأيت ذلك الجحر بعيدا من الشجر

---

(١) أى رقق حده .

(٢) أى طال تأمله .

(٣) تدقق وتختبر .

(٤) إيقادها وإشعالها .

(٥) أى الذى أثق فيه خير ممَّن أُحبُّه ، والمقة هى : الحُبُّ .

والخضرة ، فاصرف نفسك عنه ، وهلم أعنك على احتفار مسكن بهذا المكان المتيسر المرافق .

فقال له ظالم : إن ذلك يُمكننى ؛ لأن لى نفسا تهلك لبعد الوطن حنينا ، ولا تملك مع فقد السكن سكونا ، وأنه كان يقال : دلائل الوفاء سبعة : بر الآباء والأمهات ، وصلة ذوى القرابات ، والنزاع إلى الوطن[١] ، والجزع على السكن، والحزن لأخلاق الشباب ، واللبس لأخلاق الثياب[٢] ، والصبر على هرم الدواب. وكان يقال : الغريب ميت الأحياء قد أعاده البين[٣] ، أثرا بعد عين.

وقيل : إن حروف الغربة مجموعة من أسماء دالة على محصول الغربة :

فالغين من : غدر ، وغيبة ، وغبن[٤] ، وغم ، وغلة[٥] ، وهى : حرارة الحزن، وغيرة ، وغَول[٦]، وهى : كل مهلكة .

والراء من : رُزء[٧] ، وروع ، وردى ، وهو : الهلاك .

والباء من : بلوى ، وبؤس ، وبوار ، وهو : الهلاك .

والهاء من : هون ، وهوان ، وهم ، وهلك .

فلما سمع مفوض مقالة ظالم وما تظاهر به من الرغبة فى وطنه قال له : إنى أرى أن نذهب يومنا هذا فنحتطب حطبا ونرتبط منه حزمتين ، فإذا أقبل الليل انطلقت أنا إلى بعض هذه الخيام فأخذت قبس[٨] نار واحتملنا الحطب والقبس وقصدنا إلى مسكنك ، فجعلنا الحزمتين على بابه واضرمناهما نارا ،

---

(١) أى الحنين إلى الوطن .

(٢) أى الثياب البالية القديمة .

(٣) الفراق والبعد .

(٤) الظلم .

(٥) حرارة الجوف ، والمراد بها شدة الحزن كما رأى المؤلف .

(٦) من معانيه الصراع وبعد المفازة والمشقة .

(٧) المصيبة .

(٨) هى شعلة النار التى تؤخذ من معظم النار .

فإن خرجت الحية احترقت ، وإن لزمت الجحر أحرقها الدخان .

فقال ظالم : نِعْمَ الرأى هذا ، فانطلقا فأحطبا ربطا من الحطب حزمتين بقدر ما يطيقان حمله ، ولما جاء الليل وأوقد أهل الخيام النار انطلق مفوض ليأخذ قبساً، فعهد ظالم إلى إحدى الحزمتين فأزالها إلى موضع غيبها فيه ، ثم جر الحزمة الأخرى إلى باب مسكن مفوض ودخله وجرها إليه فأدخلها فى الباب فسده بها، وقدر فى نفسه أن مفوضاً إذا أتى الجحر لم يمكنه الدخول إليه لحصانته ولأن بابه مسدود بالحطب سدا محكما ، فأكثر ما يقدر عليه أن يحاصره ، فإذا يئس منه ذهب ينظر لنفسه مأوى ، وقد كان ظالم رأى بجحر مفوض طعمة ادخرها مفوض لنفسه ، فعول ظالم على الاقتيات منها فى مدة الحصار ، وأذهله الشره والحرص والبغى عن فساد هذا الرأى ، وأنه متعرض لمثل ما عزم مفوض أن يفعله بالحية .

وكان يقال : احترس من تدبيرك على عدوك كاحتراسك من تدبيره عليك ، فرب هالك بما دبر ومكر ، وساقط فى البئر التى احتفر ، وجريح بالسلاح الذى شهر . ثم إن مفوضا جاء بالقبس فلم يجد ظالما ولا وجد الحطب ، فظن أن ظالما قد احتمل الحزمتين معه تخفيفا ، وأنه بادر بهما نحو جحره إشفاقا أن يأتى مفوض فيحمل أحدهما فشق ذلك عليه فظهر له من الرأى أن يترك القبس ويبادر إليه فيلحقه ليحتمل معه الحطب ، فألقى القبس من يده ثم كره أن تنفذ النار فيحتاج إلى طلب قبس آخر ، فأدخله فى باب الجحر ليستره بذلك فأصاب الحطب فأضرمه نارا واحترق ظالمٌ فى الجحر وحاق به مكره .

فلما اطلع مفوض على أمر ظالم قال : ما رأيت كالبغى سلاحا أكثر عمله فى متحمله .

ولهذا قيل : الباغى باحث عن مدية[1] حتفه بظلفه[2] ، ومتردد فى مهاوى تدميره بمساوى تدبيره .

وقيل : ما اجتمع البغى والملك على سرير[3] إلا خلى .

---

(١) السكين .

(٢) الظلف : حافر الدابة .

(٣) أى العرش .

وقيل : لكل عاثرٍ راحم إلا الباغى ، فإن القلوب مطبقة على الشماتة بمصرعهِ

وقيل : ما أعطى البغى أحدا شيئا قط إلا أخذ منه أضعافه . ثم إنَّ مفوضا أمهل حتى طفئت النار فدخل جحره ، فاستخرج جيفة ظالم فألقاها وأوطن جحره على حالِ تحفظٍ واحتراس واستعداد لكيد الكائدين .

فهذا مثل عمرو بن سعيد ، فى بغيه ومخادعته عبد الملك ، ومخالفته إلى دار ملكه وتحصنه فيها ، وقد كان عبد الملك فى مخرجه إلى محاربة ابن الزبير عاملا فيما يريد به عزَّ عمرو بن سعيد وبقاء الملك فى أهل بيته وخروجه عن ابن الزبير ، إذ كان عز عمرو ابن سعيد عز عبد الملك ، وملكه ملكا له ، فلم يرض عمرو سعيه ولا أعانه على مصلحة نفسه ، وفعل كفعل ظالم مع مفوض سوء .

فلما سمع عبد الملك ما ضربه الشيخ من المثل ، واستبصر فيما أودعه من الحكم ؛ سرّ بذلك سرورا شديدا ، ثم أقبل على الشيخ فقال له : جزيت خيرا فقد عظمت يدك عندى ، وإنّى لأوثر أن تجعل بينى وبينك موعدا ، وتذكر لى مكانك لألقاك به بعد يومى هذا .

فقال له الشيخ : وما الذى تريد بذلك ؟ فقال عبد الملك : إنى أريد أن انتفع برأيك عند الأمير فأكافئك على ما كان منك .

فقال الشيخ : إنى أعطيت الله عهدا ، ألا أتحمل منّة لبخيل .

فقال له عبد الملك : ومن أين علمت بخلى ؟ .

فقال الشيخ : كيف لا أعلم بخلك ، وقد أرجأت صلتى ومكافأتى مع القدرة على تعجيلها ، فما عليك لو وصلتنى ببعض ما أرى عليك من السلاح والبزة السنية[1] .

فقال له عبد الملك : أقسم بالله لقد ذهلت ، ثم نزع سيفه وقال : اقبل منى سيفى هذا ولا تخدع عنه فإن قيمته عشرون ألف درهم .

فقال الشيخ : إنى لا أقبل صلة ذاهل ، فدعنى وربى الذى لا يبخل ولا يذهل فهو حسبى .

---

(١) الثياب الفاخرة .

فلما سمع عبد الملك مقالته علم فضله فى دينه وقال له : إنى أنا عبد الملك فاعتمدنى وارفع إلىَّ حوائجك .

فقال الشيخ : وأنا أيضا عبد الملك فهلم نرفع حوائجنا إلى من أنا وأنت له عبدان . فانطلق عبد الملك فعمل برأيه فأنجح .

فلما سمع الوليد بن يزيد ما أخبر به ذلك الكهل ، استرجع عقله واستظرف أدبه وسأله عن نفسه فتسمى له وانتسب فلم يعرفه الوليد فاستحى منه وقال له : إن من جهل مثلك من رعيته لمُضَيِّع .

فقال له الكهل : يا أمير المؤمنين إن الملوك لا تعرف إلا من تَعَرَّف إليها ولزم أبوابها .

فقال الوليد : كلا والله فلا توسعنا عذراً لا نستحقه ، ثم أمر له بصلة معجلة وعهد إليه فى ملازمة بابه عهدا فكان يستمتع بأدبه إلى أن كان من أمر الوليد ما هو مشهور .

روضة رائقة ، ورياضة فائقة

قيل : لما عزم أمير المؤمنين محمد الأمين[1] على إخراج عهد الخلافة عن أخيه عبد الله المأمون[2] ، والمأمون إذ ذاك مقيم بخراسان[3] كتب إليه الأمين

---

(١) محمد الأمين : أبو عبد الله محمد بن الرشيد هارون ، ابن المهدى محمد ، ابن المنصور ، الهاشمى العباسى البغدادى ، الخليفة . وأمه زبيدة بنت الأمير جعفر بن المنصور . عقد له أبوه بالخلافة بعده ، فكان مليحاً ، بديع الحسن ، أبيض وسيماً طويلاً ، ذا قوة وشجاعة وأدب وفصاحة ، ولكنه سيىء التدبير ، أرعن لعوباً ، مع صحة إسلام ودين . عاش الأمين سبعاً وعشرين سنة ، وقتل فى المحرم سنة (١٩٨هـ) وخلافته دون الخمس سنين، سامحه الله وغفر له . سير أعلام النبلاء (١٤٤٣) .

(٢) المأمون : عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد المهدى بن أبى جعفر المنصور العباسى ، الخليفة ، أبو العباس . ولد سنة (١٧٠هـ) وقرأ العلم والأدب والأخبار والعقليات وعلوم الأوائل ، وأمر بتعريب كتبهم ، وبالغ ، وعمل الرصد فوق جبل دمشق ، ودعا إلى القول بخلق القرآن وبالغ ، نسأل الله السلامة . وكان من رجال بنى العباس حزماً وعزماً ورأياً وعقلاً وهيبة وحلماً ، ومحاسنه كثيرة فى الجملة . مات فى رجب فى ثانى عشرة سنة (٢١٨هـ) . وله (٤٨) سنة . سير أعلام النبلاء (١٦٣٠) .

(٣) خراسان : بلاد واسعة ، أول حدودها مما يلى العراق أزاذوار قصبة جوين وبيهق وآخر حدودها مما يلى الهند طخارستان وغزة وسجستان وكرمان وتشتمل على أمهات من البلاد منها : نيسابور وهراة ومرو . وهو إقليم فى شرق إيران حالياً . على الحدود

كتابا يذكر فيه حاجته إلى لقائه ومفاوضته فى مهم حدث ، ويسأله أن يستتيب بخراسان من يضبطها ويعجل الشخرمى إلى بغداد[1] ، وكتب إلى المأمون عيونه فأشاروا عليه بالتثبيت والتعلل والاعتذار بشعب خراسان وتطلع من يليها من الكفار إلى الفرصة فيها وأنه لايجد من يثق بكفايته لأمرها .

وقال له عيونه الذين ببغداد : إن الأمين يريد خلعه من عهد الخلافة ونقل عهده إلى موسى بن محمد الأمين ، فلما وقف المأمون على ما كتب له أخوه وعيونه إليه شاور وزراءه.

فكتب المأمون إلى الأمين بذلك فعاود الأمين بذلك مكاتبته وأنه لو قدم عليه لقل لبثه ببغداد حتى يرجع ، وإنما يريده كى يفاوضه فى خطب جسيم لا تودع مثله الكتب ، فحين انتهى كتابه إلى المأمون أطلع عليه وزراءه واستشارهم فأشاروا عليه بمثل رأيهم الأول .

فكتب إلى الأمين بنحو ما كتب إليه أولا ، وكتب إلى الأمين عيونه بخراسان: أن المأمون قد فطن لما يراد منه وأنه ممتنع مشاقق ، وأن وزراءه اجتمعوا على أمره بالامتناع ، فيئس الأمين من تمام مكيدته لأخيه ، وأمر بالقبض على من ببغداد من حشم المأمون وحرمه وبطانته وما ظهر عليه من أمواله ، وبلغ ذلك المأمون ، فخامره الجزع وشاور وزراءه فثبتوا على رأيهم وحضوه على التثبيت وانتظار الفرج ففعل.

ولما رأى الأمين إصرار أخيه المأمون على الامتناع دعا الناس إلى البيعة لابنه موسى فأجابوه إلى ذلك وبايعوا له وسماه : الناطق بالحق، واستكفل له على بن عيسى بن ماهان[2] فجعله فى حجره ، وكان على بن عيسى بن

الأفغانية . معجم البلدان (٤١٦٤) .

(١) بغداد : أم الدنيا وسيدة البلاد ، مدينة بالعراق على نهر دجلة وهى عاصمتها ، كانت عاصمة الخلافة العباسية ، ومن عواصم الإسلام التاريخية الهامة . وتسمى مدينة السلام أيضاً . معجم البلدان (٢٠٢٠) .

(٢) على بن عيسى بن ماهان : من كبار القادة فى عصر الرشيد والأمين وهو الذى حرّض الأمين على خلع المأمون فى ولاية العهد ، وسيره الأمين لقتال المأمون بجيش كبير ، ولاه إمارة الجبل وهمذان ، وأصبهان ، وقم ، وحارب جيش المأمون بقيادة طاهر بن

ماهان قد ولى خراسان قبل ذلك مدة طويلة فاصطنع بها الرجال واعتقل المِنَن فى الأعناق[١] ، وكان شأنه بخراسان عظيما فاستشاره الأمين فى أمر خراسان فضمن له أمرها وأخبره أنه لو بلغ خراسان لم يختلف عليه اثنان ممن هو بها .

فجهزه الأمين إليها وولاه كل بلد يغلب عليها ، وأعطاه أموالاً جزيلة وجهز معه جمهور جنوده وأصحبه من السلاح والكراع[٢] ما شاء ، وبلغ ذلك المأمون فاضطرب أمره وعلم عجزه عن مقاومة على بن عيسى ، فركب إلى منتزه له ليناظر وزراءه فى تدبير أمره ، فعارضه شيخ هرم من الفرس ؛ مجوسى ، فناداه بالفارسية مستغيثا من مظلمة نالته ، فلما نظر المأمون إلى هرمه رق له وأمر أن يحمل على دابة ويتبع به إلى الموضع الذى قصده ويدخل عليه بغير استئذان ، ولما استقر المأمون ووزراؤه بذلك الموضع الذى قصدوه أدخل عليه الشيخ الفارسى فأمره بالجلوس فى حاشية المجلس ، ثم أقبل على صحابته ، فأخبرهم بما صنعه أخوه الأمين من القبض على حاشيته وماله ، وتجهيزه على ابن عيسى وهو يظن أن الشيخ لا يحسن اللسان العربى وأن ما به من الهرم شاغل له عن الإصغاء إلى ما هم فيه مع ما حمله على ذلك من القلق والاضطراب .

فلما رأى القوم أن المأمون لم يتحفظ من الشيخ تفاوضوا فيما جلسوا له فطالت مناظرتهم إلى أن قال أحدهم : الرأى اصطناع قوم من الاغتام[٣] الذين لايعرفون على بن عيسى فيلقى بهم .

وقال غيره : الرأى أن يبادر بالإرسال إلى الأمين بطلب الصفح وبذل الانقياد لأمره فإنه يرى ذلك حظا .

وقال غيره : الرأى أن يلجأ إلى بعض المعاقل فيعتصم به وينتظر الفرج .

وقال غيره : الرأى أن نجمع أهل النجدة فنزيح عللهم ، ثم نقصد بعض هذه الممالك المجاورة لنا من ممالك الكفار فنصدقهم القتال ، فلعل الله أن يظفرنا

حسين فى الرأى فقتل ، وانهزم أصحابه ، مات سنة (١٩٥هـ) . الكامل لابن الأثير (٧٩/٦) ، البداية والنهاية (٢٢٦/١٠) .

(١) المنن : أى الفضل والقوى .

(٢) اسم يطلق على الخيل والبغال والحمير .

(٣) الأغتام ، مفردها : غتم وهو من لا يفصح فى كلامه (الأعجام) .

فنصير إلى مملكة تؤوينا وينزع إلينا من هو على مثل رأينا فنمتنع ونجاهد فى سبيل الله عز وجل حتى يقضى الله أمره .

وقال غيره : الرأى عندى أيها الأمير أن ينحاز الأمير إلى ملك الترك مستجيرا به ومستغيثا على أخيه الغادر القاطع ، فهذا أمر لم تزل الملوك تفعله إذا دهمها ما لا قبل لها به .

فلما سمع المأمون هذه المقالة ركن إليها وعول على هذا الرأى ، ثم فكر فقال: كيف أجعل للترك على حرب المسلمين سبيلا وقال لأصحابه : قوموا عنى فنهضوا أجمعون ، والتفت فرأى الشيخ الفارسى فقربه ورفق به وسأله عن أمره وما قصد له على لسان ترجمان أقامه له فقال الشيخ بلسان عربى : أيها الأمير إنى جئت لحاجة فعرض لى دونها ما هو آكد منها وأولى .

فقال المأمون : قل ما أحببت سالكا سبيل الأدب .

فقال الشيخ : أيها الأمير : إنى دخلت إليك غير متصف بالمحبة لك ثم ألقى الله تعالى فى قلبى من المحبة للأمير ما ملأه وأنه كان يقال : الرق ثلاثة أنواع : فأولها وأشدها استيعابا للباطن والظاهر رق الاختراع وهو الرق لله صانع الأشياء ومخترعها ، والثانى : رق الاصطناع وهو رق المنعم عليه للمنعم ، والثالث : رق الاتباع ، وهو صنفان : أحدهما : رق الحب وهو أقربها إلى رق الاختراع لأن له سلطانا متسلطا على الباطن والظاهر . والثانى : رق الرعية لراعيها ، ورق العبيد لسادتها ، وأنا أخبر الأمير أعزه الله أنه قد تظافرت له على ثلاث قوى من الرق : رق الحب ، ورق الاصطناع ، ورق الاتباع ، فإن رأى الأمير أعزه الله أن يوسل وسيلتى ويصدق أملى ، ويسعف طلبى فيلحفنى[1] رداء اختصاصه ، ويكرمنى بمكاثرة أوليائه ونصائحه ، فعل ذلك متطولا[2] به غير محتاج إليه ، وإنّ عبده ليرجو أن تصادف الصنيعة منه شاكرا، والاختصاص منه مشفقا ناصحا .

فقال له المأمون : ما دينك أيها الشيخ ؟ قال : مجوسى . فأطرق المأمون

---

(١) أى يمنحنى .

(٢) أى متفضلاً .

مفكرا فيما تكلم به .

فقال الشيخ : لا يصدن الأمير عنى حقارة قدرى عنده فإنه كان يقال : لا تحقرن من الاتباع أحدا فإنك تنتفع به كائنا من كان ، وهو أحد رجلين ، إما شريف فتتجمل به ، وإما وضيع فيحمى عرضك ويصون مروءتك وعلى أنى لست أعنى بحقارة قدرتى عند الأمير حقارة أخلاق ، ولا حقارة أعراق ، فأمّا أخلاقى فامتحانها بيد الأمير ، وأما أعراقى[1] فإنى برهمى من براهمة البرهميين[2] سيد ملوك الفرس المتوسط بينها وبين أول الأوائل ، وإنما أعنى حقارة دينى عند الأمير وكونى فى عقد ذمته[3] ، وصغار جزيته[4] .

فقال المأمون : ما بِنا عنك أيها الشيخ من رغبة ، وإن انتقلت من ذمتنا إلى ملتنا ألحفناك شعارا .

فقال الشيخ : إن الباعث من نفسى إلى ما دعانى إليه الأمير لسديد ، ولكن لا أفعله فى مقامى هذا ، ولعلى أن أفعله فيما بعد ، ثم قال : أيأذن لى الأمير أن أتكلم فيما فاوض الآن وزراءه فيه ، فقال له المأمون : نعم .

فقال الشيخ : قد سمعت ما أشار فيه وزراء الأمير وكل منهم مجتهد فى الإصابة ولست أرضى شيئا مما ذهبوا إليه ، فقال له المأمون : أطلعنا على ذلك.

فقال الشيخ : إنى أجد فى الحِكَمِ التى ورثها آبائى عن آبائهم : أنه ينبغى للعاقل إذا دهمه ما لا قبل له به أن يلزم نفسه التسليم لحكم قاسم الحظوظ و لا يضيع من ذلك نصيبه من الدفاع بحسب طاقته ، فإنه إن لم يحصل على الظفر حصل على العذر فقال المأمون : أيها الشيخ : إنه كان يقال : لا رأى لكذوب ، وقد سمحت أنفسنا لك بالثقة من غير امتحان ، وما ذلك لاختيارنا إضاعة

---

(١) أى نسبى وأصلى .

(٢) البراهمة : هم خدمة إله الهنود (برهما) يعبدون كل شىء سوى الله سبحانه وتعالى .

(٣) أى أنه من أهل الذمة .

(٤) الجزية : والجمع جزى وجِزاء : ما يؤخذ من الذمى لأنها تجزى عنه أى تكفيه معاملة الحربيين.

الحزم، ولكننا أحببنا أن نذيقك ثمرة حبنا بالمكاشفة الدالة على القبول ، وها نحن نخبرك أن هذا المتوجه إلينا ؛ يعنى على بن عيسى هو أملك بالبلد منا ، لا يمكننا مقاومته ، ولو أردنا ذلك لتعذرت الأموال قبلنا . فقال الشيخ : أيها الأمير : ينبغى أن تمحو هذا الأمر من قلبك بالجملة ، ولا تصغى إلى من ينطق به فإنه كان يقال : ما كَثُر مَنْ كَثَّرَهُ البغىُ ، ولا قوى مَنْ قَوّاهُ الظُلْمُ ، ولا مَلِكَ من مَلَكَهُ الغَضَبُ ، وها أنا أحدثك عمن إن حذوت مثاله نلت منالـه .

فقال له المأمون : هات .

فقال الشيخ : إن الخنشوار[1] ملك الهياطلة[2] ، لما أسر فيروز بن يزدجرد[3]، ملك فارس وأراد إطلاقه ، أخذ عليه عهدا ألا يغزوه ولا يقصده بمكروه ووقع فى أقصى تخوم[4] أرض الهياطلة صخرة ، وأخذ على فيروز عهدا ألا يجاوز تلك الصخرة ، ولما استوثق الخنشوار من فيروز بما أخذ عليه من عهود المسالمة أطلقه ، فحين رجع فيروز إلى دار ملكه داخلته الحمية والأنفة ، فعزم على غزو الخنشوار وأطلع وزراءه على ذلك ، فحذروه النكث ، وخوفوه عاقبة البغى ، فما ردعه ذلك عما هَمَّ به ، وأذكروه العهود التى أخذ عليه ، فقال لهم : إنى إنما حلفت له ألا أتجاوز تلك الصخرة ، وأنا آمر بحملها على فيل فتكون بين يدى جنودى لا يجاوزها أحد منهم .

فلما رأوا أن الهوى قد وقف به على حد الرضا بهذا القول علموا انقياد عقله لشهوته ، فأمسكوا عنه واعتقدوا أن لا يراجعوه فى ذلك .

وكان يقال : الهوى صدأ يعلو العقل فلا تتطبع فيه صورة الحقائق .

وكان يقال : ما لم يبلغ الهوى حد اللجاج فهو نشوة السكر ، فإذا بلغ اللجاج فذلك دين السكر وقوة سلطانه .

---

(١) الخنشوار : اسم ملك من ملوك الهياطلة .

(٢) الهياطلة : شعوب آسيوية من غزاة العالم القديم ، أصلهم من سيبيريا ومنغوليا .

(٣) فيروز بن يزدجرد : ملك فارس بن يزدجرد بن شاهبور وهو أحد ملوك فارس الساسانيين. البداية والنهاية (٣١/٧) .

(٤) التخوم ، مفردها التخم : وهو الحد .

وكان يقال : لا ترشد الهوى فى حال استيلاء الشهوة والغضب عليه ؛ لأنها حال احتجاب عقله ، وذلك أن الهوى أملك بالنفس لتقدم سلطانه عليها ، فاما سلطان العقل فطارئ مستفاد ، وللعقل حجابان وهما الشهوة والغضب ، فلا يزال العقل ناظرا إلى الهوى قاهرا له ما لم يحجبه غضب أو شهوة فحينئذ ينبسط سلطان الهوى وينفذ حكمه .

قال : فجمع فيروز مرازبته[1] ، وهم أربعة يتبع كل سلطان منهم خمسون ألف مقاتل ، كان كل واحد منهم ضابطا لربع من أرباع مملكة بابل[2] ، وأمرهم بالتجهز لحرب الهياطلة ، ففعلوا وسار فيروز نحو الخنشوار فى جيوش يظن أنه الغالب ، وكان الخنشوار يضعف عن مقاومة مرزبان من مرازبة فيروز ، وإنما كان ظفره بفيروز أولا لمكيدة ليس هذا موضع ذكرها .

وقد كان موبذان ، وهو عند الفرس كالنبى ، قال لفيروز حين رأى عزمه على غزو الخنشوار : لا تفعل أيها الملك ، فإن رب العالم يمهل الملوك على الجور ما لم يأخذوا فى هدم أركان الشريعة ، فإذا أخذوا فى ذلك لم يمهلهم ، وإن العهود والمواثيق ركن من أركان الشريعة فلا تعرض له بسوء ، فلم يلتفت فيروز إلى هذه المقالة وركب رأيه فى معصية نصحائه .

وكان يقال: يستدل على إدبار الملوك بخمسة أمور :

أحدها : أن يستكفى الملك بالأحداث ومن لا خبرة له بالعواقب .

والثانى : أن يقصد أهل مودته بالأذى .

والثالث : أن ينقص خراجه عن قدر مؤونة المملكة .

والرابع : أن يكون تقريبه وإبعاده للهوى لا للرأى .

والخامس : استهانته بنصائح العقلاء وآراء ذوى الحنكة .

وكان يقال : من عصى نصيحا فقد استفاد عدوا .

---

(١) المرزبان : جمع المرازبة : الرئيس عند الفرس (كلمة فارسية) .

(٢) بابل : اسم ناحية من الكوفة والحلة ينسب إليها السحر والخمر ، وهى من أشهر مدن الشرق القديم وأكبرها ، وأنقاضها حالياً على نهر الفرات شرقى بغداد . معجم البلدان (١٢٦٨) .

وكان يقال : إنما يكون قبول الصواب ورده بحسب قوة التخيل الفكرى وضعفه ؛ فمن قوى تخيل فكره فهو فى سلطان الرأى غالب ، ومن ضعف تخيل فكره فهو فى سلطان الهوى غالب ، وعلى حكم هذا القانون فمَنْ عدم الفكرة فى الأمور التحق بالبهائم .

ثم قال الشيخ الفارسى : وإن فيروز سار قاصدا نحو الخنشوار حتى إذا انتهى إلى تلك الصخرة التى نصبها الخنشوار عَلَمًا لتخوم أرضه ، واستحلف فيروز ألا يجاوزها . أمر فيروز بقلعها وحملها على فيل ، وأن يكون الذى يحملها بين يدى عسكر فيروز ، ونَهى ألا يتجاوز ذلك الفيلَ أحدٌ من المعسكر ، فما أبعد عن ذلك الموضع الذى كانت الصخرة فيه حتى جاءه رجل من ثقات أصحابه فأخبره ؛ أن أسوارا[1] عظيم القدر من أساورته قتل رجلا مسكينا ظلما وعدوانا ، وجاء أخو ذلك المسكين المقتول فاستغاث بفيروز وتظلم من الأسوار قاتل أخيه ، فأمر فيروز بمال يرضيه به من دم أخيه ، فأبى قبول المال وقال : لا يرضينى إلا دم قاتل أخى، فأمر فيروز بطرده فانطلق من فوره إلى الأسوار الذى قتل أخاه فشد عليه بخنجر فى يده ، فلما رآه الأسوار حرك فرسه هاربا بين يديه ، وانتهى الخبر إلى فيروز فتعجب من ذلك فنزل وزير من وزراء فيروز عن دابته ، وتقدم بين يدى دابة فيروز فسجد له ، فسأله فيروز عن أمره ، فذكر أنه يريد الخلوة معه فى مُهِمّ عرض له ، فأمر فيروز فضرب له فسطاط فنزل فيه وأذن لذلك الوزير فدخل عليه وأمره بذكر ما عنده .

فقال له : أيها الملك السعيد : ملكت الأقاليم السبعة[2] وعمرت عُمر بيوراسف[3] فى مثل عزته وقوته ، لقد ظهرت غياته أول الأوائل بك بما ضربه لك من المثل فى أمر هذا الأسوار إذ كان أسوارا نجدا هرب بين يدى مسكين

---

(١) كلمة فارسية تعنى القائد الجيد الرمى بالسهام الثابت على ظهر الفرس .

(٢) الأقاليم السبعة : هو تقسيم الحكماء للمعمور من الأرض وهو يبدأ من الشمال إلى الجنوب، كل واحد منها آخذ من الغرب إلى الشرق على طوله . مقدمة ابن خلدون (٨٩).

(٣) بيوراسف : من ملوك الفرس العظماء ، وكان لقبه الضحاك وهو اعراب دَهَاك معناه : ذو عشرة آفات مفاتيح العلوم (٦٣) .

فى يده خنجر ، وما ذاك إلا لبغيه وتعديه .

فقال فيروز : إنه لم يفر منه لعجزه عنه ؛ بل لخوفه منا ، ولم يكن ليفعل تلك الفعلة القبيحة ثم يشفعها بمثلها.

فقال الوزير: أيها الملك : أرأيت إن دعوته إلى مبارزة ذلك المسكين ، وأمنته من سطوتك فظهر ذلك المسكين عليه ، أما تعلم أن هذا مثل ضربه لك قَيِّم العالم[1] ؟ .

فقال الملك : لأفعلن ذلك ، ثم إنه أحضر الأسوار فأمنه وأمره بمبارزة ذلك المسكين الثائر بأخيه ، فأجاب إلى ذلك وجمع عليه سلاحه وركب فرسه ، وأتى بذلك المسكين ، فعرض عليه مبارزة الأسوار فأظهر الرغبة فيها والحرص عليها، فخوف من الهلاك فلم يخف .

فقيل له : أما ترى درعه وسلاحه وفرسه ، أما سمعت بفروسيته ونجدته وإقدامه ، إنك مهلك نفسك ومستميت ، ولا إثم علينا فيك .

فقال المسكين : دعونى وإياه ، فإنه على فرس الغرور وأنا على فرس البصيرة، وهو لابس درع الشك وأنا لابس درع الثقة ، وهو مقاتل بسيف البغى ، وأنا مقاتل بسيف الحق .

فقال الوزير لفيروز : أيها الملك : إن كلام هذا المسكين أبلغ فى التمثيل[2] والموعظة من ظفره بهذا الأسوار ، فصن أسوارك واستبق نفسه ولا تعرضه للهلكة بلقاء هذا المسكين ، واعمل فى رضاء هذا المسكين بالإحسان إليه ، فإن لم يرضه إلا القصاص ، فاقض له بالعدل ألوف منك ، واستدم عناية الأول الآخذ بك بعنايتك بالحق الذى يرضيه العمل به ويسخطه اجتنابه .

فقال فيروز : لابد من أن أخلى بينهما وأنظر إلى ما يكون منهما ، إن كان المسكين يختار ذلك ويرغب فيه ، فأعاد وعرض مبارزة الأسوار على المسكين، فأصر على الرغبة فيها والحرص عليها ، وخوفوه الهلاك فلم يزده تخويفهم إلا جراءة وإقداما .

---

(١) القيِّم على الأمر : متوليه ، وقيم العالم : خالصه ومتوليه سبحانه وتعالى .

(٢) التمثيل : تصوير الشيء كأنه ينظر إليه .

فقيل للأسوار : ألقه ولاتخس عنه[1]، فحمل كل واحد منهما على صاحبه فالتقيا ، وقبض المسكين على شكيمة[2] فرس الأسوار وضربه الأسوار بالسيف ضربة تطأطأ لها المسكين ، فأصاب ذباب السيف[3] أليته[4] فأثر فيها أثرا ليس بالكبير ، ثم ثار إليه المسكين فضربه بالخنجر فى عنقه وجذبه فصرعه ، ثم ضربه وهو ملقى ضربة أخرى ، فأدخل سن الدرع حلقات فى جوفه ، وقضى عليه. فبات فيروز تلك الليلة فى موضعه ذلك يفكر فيما يأتيه من الأمر ، ثم إنه استقاد لهواه فنفذ لوجهه .

وكان يقال : أول الهوى هوان[5] ، وآخره هون[6] .

وكان يقال : الهوى طاغية ، فمن ملكه أهلكه .

وكان يقال : الهوى كالنار إذا استحكم إيقادها عسر إخمادها ، وكالسيول إذا اتصل مدها تعزر صدها .

وكان يقال : ليس الأسير من أوثقه عداه أسرا ، إنما الأسير من أوثقه هواه قسرا وأرهقه خسرا .

قال الشيخ : ولما علم الخنشوار قصد فيروز لحربه ، حمل نفسه على التثبت وَوَكَّل أمره إلى الأول الآخر ، وسأله أن يغضب لعهوده ومواثيقه التى لم يرع فيروز حقها ، ولاخاف تبعة نكثها ، وأخذ مع ذلك بحظه من الحزم فسد ثغوره ، وجمع إليه جنوده ، وأعد للقاء فيروز عدته ، وأمهل حتى وطئ فيروز كثيرا من أرضه وتوسط مملكته ، وعاث فى بلاده[7] ، وساء على رعيته أثره ، فنهض إليه ففاجأه وصدقه الجلاد ، فانكشف فيروز منهزما وأسلم ما كان فى يديه ، فقتل الخنشوار رجاله وغنم أمواله وأمعن فى طلب فيروز حتى ظفر به فقتله ، وأسر أهل بيته وحماة أصحابه ، فكانت العاقبة له .

---

(١) أى لا تغفل عنه .
(٢) لجام الفرس .
(٣) أى طرف السيف .
(٤) الإلية : العجيزة أو ما ركب العجز وتدلّى من شحم ولحم .
(٥) الذل .
(٦) ضعف .
(٧) أى أفسد فى بلاده .

فلما سمع المأمون ما ضرب له الفارسي مثلاً ، أقبل عليه مستبشراً وقال له: قد سمعنا مقالتك فصادفت منا قبولا لها ، وشكراً عليها وسروراً بها ، فبماذا ترى فيما دعوناك إليه من توحيد الله عز وجل ؛ الذى أجزل من العقل حظك ، وفتق بالمعرفة فكرك ، وأنطق بالحكمة لسانك ، وقطع بمحمد ﷺ عذرك[1] .

فقال الشيخ : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله ، فسر المأمون بإسلامه وأجزل صلته ، وقرب منزلته ، فألحقه بخاصة أصحابه ، وأمره بملازمة بابه ، فما لبث إلا أياما قلائل حتى لحق بربه ، وعمل المأمون برأيه ، فأنجح الله عمله ، وبلغه من الخلافة أمله .

---

(١) أى لا حجة لك فى شركك ببلوغك رسالة محمد ﷺ .